# رواية الحسناء

## زنوبيا

تابع صفحة ٣٨٦

باي سرور اكتب اليك مرة ثانية ايها العزيز كورنيليوس واخبرك كيف قضيت ايامي · وما اصبت من النجاح في مهمتي · ولكن قبلما ابتدي، عليَّ ان اشكرك على ما رويته لي من اخبار روما في كتابك الاخير · ومع انني مسرور في هذه العاصمة فاستلامي الرسائل من الوطن يزيد في سروري وسأروي لك في رسائلي الآتية اخباري واحدث بورنيا باذكار طفيفة شأنا في محادثاتنا المعتادة فارجوك اذا بعدما تقراء كتابي ان ترسله اليها لتطلع عليه والتمس ان احكي لك قريباً اشياء كثيرة عن الادب في هذه البلاد · وعن مقابلتي لجمعة منتخبة من الرجال العظام · وما دار بيني وبينهم من الاحاديث لانني بعد وصول الملكة من سياحتها في ولاياتها البعيدة سأقصد جربكوس واطلب منه ان يقوم بوعده لي ويعرفني بلونجينوس الذي هو رفيق الملكة الآن · وعند مخاطبتي لهذا العلامة الكبير سأخرج ما يسركم جميعاً · وكل ما هو مفيد ولذيذ · صار لي الآن عدة ايام في تدمر واصبحت عندي اشياء كثيرة لاخبرك بها · ولكن بدلاً من ان ارويها لك دفعة واحدة سأرويها كل واحدة بمفردها بحسب مدة وقوعها واظن هذا ما تريد

يجب عليَّ ان اخبرك كم كانت ليلتي الاولى لذيذة وهنيئة بعيد ذلك السفر الطويل · نمت وانا اعلم بان اخي نجا وعاد الينا سالماً · وكنت اسمع غناء فوستا وصوت عودها يرنان في اذني · وعند الصباح باكراً وقف ميلسال العبد ببابي ينبهني بان ساعة الفطور دنت · فذهبت معه الى غرفة غير التي تعشينا فيها بل هي كرواق يوصل اليها مطل على بقعة اشجار صغيرة وقائم على اعمدة دقيقة الصنع وقد تعرشت عليها النباتات فصيرتها اكثر جمالاً وبهاء وهناك نافورة تدفع ماءها البلوري الى العلى فينزل بشكل يخلب الالباب وحول الرواق حتى آخر مرمى النظر ، ارض خضراء اكتست بالزهور الجميلة : فكان المنظر في هذا الصباح جميلاً جداً · فقلت هذا خير جزاء لما لاقيت من حر الصحراء ومشقة الطريق وتفاءلت خيراً اذ رأيت الطبيعة تبسم اليَّ وقد فتحت صدرها لأبثها · وبينا كنت مشغولاً بهذه الهواجس اذ شعرت بيد فوستا قد وضعت في يدي وصوتها الرخيم رنَّ في

اذنيّ وهي تحييني

— وجهك نضر يا لوسيوس كهذا الصباح · فيظهر انك نمت نوماً هنيئاً وحلمت احلاماً شهية · والا فيكون اذاً هواء تدمر العجيب سبب هذه النضارة الباهرة منك

— نعم نمت نوماً هنيئاً يا فوستا والذي اعتقده ان غناءك والتودك الموالية هما سبب ذلك وليس هواء تدمر · لاني نمت ورنات عودك ونغمات صوتك الجميل تردد في اذنيّ فزادت في راحتي وهناءي · وجعلتني اتذكر احباءي واصدقاءي واخصهم أخي كالبرنيوس · فتخيلته راجعاً لروما · ورأيت شبحك من بعيد حائماً حوله وصوتك ونغمات عودك الساحرة ترن بدون انقطاع · ان هذه يا فوستا لعلامات خير لي · كأنها من عند الله · فيا حبذا ان ارى اخي واقبله — فاقبل به رومانيا حراً لا غش فيه ·

— الآلهة تنيلك ما ترغب يا لوسيوس ·

ثم دخل جريكوس وهو يقول :

— وانا اطلب لك هذا الطلب · على الآلهة ترني لك · فقد افتكرت كثيراً الليلة الماضية بمسألتك فوجدت ان قرارك الاخير هو احسن حل لها · سأشتغل طول هذا النهار خارج البيت · وسأسعى واجتهد حتى اجد لك من يمكننا ان نضع هذه المهمة الصعبة الخطرة على عاتقه واري في رجال اسرائيل مقدرة على تولي هذه المهمة لكنني لا اعرف الا نفراً قليلاً منهم

— ما زلت تنير طريقي من وقت لآخر · فقد انتهى نصف العمل لاني اعرف اسرائيلياً استوفى كل مطاليبنا · فقد تعرفت به وانا على ظهر السفينة التي جئت فيها الى بيروت بعد ان مررنا على آتيكا حيث نزل خفيفة كل قطر هو وطن له لانه يعرف كل اللغات وكل اجناس البشر · وكل البقع · وزد على ذلك فيه كل دهاء اولاد جنسه مع نباهتهم وحماستهم وهو سائح من طبيعة حاله · ويباع لاي شيء يمكن ان يشترى · ومستعد للذهاب لكل محل يعتقد فيه مكاسب وفيرة يساعد بها في بناء اسوار اورشليم وقد افترق عني وهو مصمم النية على اللحاق بي الى هنا حتى اراه فاشتري منه شيئاً · اذ انه سبق و باعني اشياء في هذه الصندوقة منها خاتمين مرسوم عليهما راسي زنوبيا واوديناتوس زوجها · واكد لي بانهما مثالا راسيهما حقيقة ) واتيتهما بهما وقلت — انظري اليهما يا فوستا · فاذا كانا حقيقة يشبهان رأسيهما فانا اكد بانه صدق بما قاله لي فتنق به فيما بعد

فقالت فوستا وابوها: جمال باهر ! لقد صدق معك فاننا نرى فيهما رأسي زنوبيا والملك اما صنعهما فكأنه صنع دتتريوس الصائغ الشهير

— انه لامر عجيب ان ارى سكان الاقاليم البعيدة عن العاصمة روما يعرفون عنها وعن الاشياء التي فيها اكثر من سكانها

فاجاب جربكوس — نعم تأكد ان اصحاب الفنون الجميلة في روما معروفون في الاقاليم اكثر مما فيها والازياء التي تظهر فيها تستعمل هنا قبلما يستعملها النبلاء هناك . اما الحلقتان فانهما نفيستان . وارى رأس اودیناتوس اقرب الى الحياة من رأس زنوبيا

فصرخت فوستا : = وهل للحجر والذهب ان يأتيا بصورة زنوبيا بجمالها الرائع وعظمتها المتناهية . فهذا الحجر يظهر جميلاً لك الآن يا لوسيوس ولكن لما ترى الملكة وجهاً لوجه ترى الفرق . فتغير اعتقادك . ليتها كانت هنا الآن ! فان غيابها عنا رنة اسى عظيمة تجعلنا في خمول وسكون

= اذاً البسي في اصبعك هذا ، هذا الخاتم الذي عليه رأس الملكة التي تحبينها كل هذا الحب . ثم مدت الي اصبعها الجميل لالبسها اياه فحاولت ذلك بكل لطف فلم افلح لان الخاتم كان واسفاه صغيراً جداً . فقلت لها = انه لا يريد اصبعك يا فوستا . فيظهر ان صداقتك مع الملكة على وشك التراخي

= لا . لا تجعل فكراً كهذا يتسلط عليك . ها محل خاتم زنوبيا في هذا الاصبع الآخر الذي فيه اوريليان فالبسني اياه يا لوسيوس واجعل جمالها يشع عليَّ منه )

قالت هذا ونزعت الخاتم الذي عليه رأس اوريليان وضربت به عرض الحائط لتفسح محلاً لخاتمي . فالتقطته انا ووضعته في اشرف محل في يدي اليمنى وقلت لابيها :

— امر غريب شجاعة بنات اليوم . فيظهر انهن على وشك الجلوس على رؤوسنا وهن لا يدرين . اما الخاتم فانا البسه يا فوستا لان الصورة التي عليه مع انها بشعة حقيقة فهي صورة مليكي وصديقي .

فضحكت فوستا ووافقت على احتذي الخاتم ثم دعتنا الى المائدة لنتناول طعام الصباح . وكانت المائدة ملأى من الفواكه الشهية . وقد دار الحديث اثناء الفطور عن المدينة وغناها وعدد سكانها وقوتها وما سيكون لها من العز والسؤدد . وقد استنتجت من حديثهما بان آل البلاط مع عامة الشعب على اعتقاد واحد من ان تدمر لا يستهان بها وانها لا تهاب روما ولا بطشها اذا تصادم جيشاهما

ولما انتهينا من الطعام قام جربكوس وجعل يمشي ذهاباً واياباً في وسط الرواق . ثم فتح موضوع مهمتي وقال : طريقتنا بسيطة وظاهرة . فعليك ان تنتظر وصول صديقك

اسحاق فاذا اتى كان به · والا فعلينا ان نطوف حي الاسرائيليين لنجد غيره من يقوم بهذه المهمة · اما الان فاتركك واتكل في تعريف البلدة وضواحيها اليك على فوستا · لانها احسن من يتولى هذا العمل

— اذا كانت فوستا ترضى بهذه الثقة فانه لامر ........

فقاطعتني وقالت : — بسرك ! أليس هذا ما تريد ان تقول ؟ انه حقيقة يسرني انا ايضاً اذ يتسنى لي ان اظهر للروماني الشامخ عظمة تدمر وسؤددها · واذا نزعت من رأس الروماني اعتقاده بانه كبير وعظيم فانه يصبح رجلاً مقبولاً · فعلى الرومانيين رجالاً ونساء ان يتعلموا باخلاق التدمريين فانها اقرب الى حسن المعشرة والاجتماع هكذا انا افكر ويفكر معي ايضاً لونجينوس واسقف انطاكية المحترم فهل تقدر ان تخالفني في الرأي وهما من قائليه معي · اراك قد طربت · فلا عجب في ذلك فلونجينوس فيلسوف مجرب يعرف ما في الدنيا · وتخترقها عيناه مثلما تخترق افكاره تعاليم افلاطون الغامضة · اما الاسقف فلا مثيل له في المشرق · ووظيفته ليست اقل اهمية من اكبر مقام في انطاكية وتدمر · فهو الوحيد الذي يختار ليكون الحكم بين المتخاصمين الكبار

اما الفيلسوف اليوناني لونجينوس فاقر باني احترم اقواله واحكامه · واميل اليه في جميع شكوكي في الاديان والفلسفيات · اذ في الاديان يوجد فلسفة · حتى وفي الملبس والمشي ! فلسفة الانسان واخلاقه واعتقاداته تعرف من هيئة لبسه وسيره · اما ما قلته عن الاسقف المسيحي فلا ارضى به · لان هؤلاء الاساقفة كما اظن يتداخلون كثيراً فيما لا يعنيهم · وعدا ذلك فاذا كان ما سمعته صحيحاً عن شدة وصرامة مبادئهم وتعاليمهم لما كنت في السفينة من رجل مسيحي فيكونون قد حادوا عن صراطهم المستقيم بتداخلهم في الامور · سررت جداً من اعتقادات ذلك الرجل · واني ما زلت اتحسر على فراقي اياه قبلما يتسنى لي الوقوف على كل اعتقادات مذهبه · صدقت اقواله من طريقة حديثه فقط · وبساطته · ومن وجهه الذي كان اكبر مؤثر بي · فهذا الرجل وامثاله يخدمون مذهبهم اكثر من هؤلاء الاساقفة

— انا لا اعرف كثيراً عن هذا الاسقف غير ان بل ما اعرفه عنه ان له تاثيراً كبيراً على البرنسيس جوليا · وعلى ظني انها على وشك التصريح باعتناقها هذا المذهب المضحك الذي كله خرافات مضلة · واني لفي غاية التعجب من انتشارها بسرعة في ايامنا هذه · ولكن ها العربة قد وصلت · فدعنا نركب

فركبنا العربة · وانه ليخونني القلم في التعبير عما رأيته وتفرجت عليه في المدينة

وضواحيها · من المؤكد انك تعرف شيئاً عن المدينة من الكتب الموضوعة عنها · وبالاخص من الكتاب الذي ظهر اخيراً تأليف سور بوس · غير اني اخبرك من الآن انه لا يوجد رجل حقود ذو غايات ومطامع شخصية مثل هذا الرجل · فاسمه فقط لعنة عند التدمريين الكرام ذوي المروءة والغيرة · نعم لا ننكر ان غلطاتهم الوطنية كثيرة لكنهم لا يستحقون ما قيل عنهم في ذلك الكتاب من ضروب الشنايع المعيب ولهذا ساكتب اليك افكاري الخصوصية بكل حرية عن سياسة تدمر وحالتها ومستقبلها

فلما بانا ركبنا العربة · فحالاً سارت بسرعة وخرجت بنا من بوابة القصر الكبرى الى الشوارع والطرق المزدحمة · وكانت اشعة الشمس قد امتدت وشملت اغلب البقع فزادت في بهائها ورونقها · والقوم بين غاد ورائح وهم بالبسة جميلة تخلب لب الروماني · نعم انها لا تدل على انهم اكثر غنى منا غير ان الازياء والالوان المتنوعة تدل على انهم اكثر ذوقاً وعظمة · وبالاخص حاشية الملكة والمقربين اليها فاذا قلت ان سكان المدينة ينسجون على منوال الملكة في لبسهم لصدقت

ارى كل شيء هنا بهياً جديداً اكثر من روما · فبناء الجمهورية الذي يرغب كثيرون في حفظه في روما وغيره من ابنية الشوارع القديمة يسودها قتام ووحشة · هنا ارى ابنية جميلة ومفرحة كلها مبنية بالرخام · ونوافير الماء متفرقة متعددة تدفع مياهها الى العلى فتنزل وتبرد الهواء · جعلت الهياكل وقصور النبلاء ومتاجر المدينة جمالاً فائقاً لتدمر لا يمكن لاي مدينة ان تفاخرها باجمل منها · فحول مدينة كهذه ملأ بقوم من بلاد الشرق المختلفة · وهم بالبستهم الغريبة وحيواناتهم التي نادراً ترى في بلادنا · اما هنا فكل لحظة تراها — من فيلة · وجمال · ونعم · وخيول عربية · وهي بلبسها الثمين فتحيل كل هذه الاشياء ومما ترى من وقت لآخر منظراً من فرسان الملكة يسيرون على صوت ابواقهم المطربة فترى لمحة من الحياة والحركة في هذه المدينة

اما فوستا فكانت في سرور زائد لابتهاجي من هذه المناظر وجعلت تفتخر على اسيا وعلى عاصمة الدنيا — روما · وما زلنا نسير بالمركبة على مهل لازدحام الطرق ولرغبتي بالتفرج على اعمال القوم وادابهم · فدكاكينهم المزدانة باحسن واغرب المصنوعات وطرق اقتناص البائع للشاري المتني وجعلت افكاري تسرح · وبينما كنت على هذه الحال اذا بصوت فوستا قد ارجع اليّ انتباهي بقولها الآن استعد لترى عظمة تدمر الحقيقة عندما تلفت آخر هذه الطريق ليسارك فترى